البعد التواصلي والمعالجة التقنية في تعليمية اللغة العربية

الباحثة: صليحة بردي

إشراف: أ. د/ عبد القادر توزان

salihaberdi@gmail.com

قسم الأدب العربي- كلية الأداب والفنون

-جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف

ملخص:

يناقش علم الأصوات الصوت اللغوي بوصفه ظاهرة إنسانية؛ متطلعا إلى التحليل العلمي للكلام، كمظهر فعلي للغة في الممارسة التواصلية، تحليلا ينطلق من الكل إلى الجزء، وقد كان هذا العلم في بداياته عاما، لا يعنى بتفاصيل عمليات النطق؛ من حيث طبيعتها العضوية، وكذا مختلف القوانين التي تتحكم في توجيهها، غير أن هذه المرحلة سرعان ما تم تجاوزها؛ حيث شهد هذا العلم نهضة مثيرة للدرس، والنقاش منذ القرن الثامن عشر، شأنه في ذلك شأن العلوم الأخرى؛ حيث أفاد من تلك التجربة التي عرفها علم وظائف الأعضاء، وكذا توظيف تقنيات متميزة في التحليل اللغوي، ومن ذلك الوصف، والمقارنة بين المعطيات الصوتية في أنظمتها المختلفة، وبذلك انحاز علم دراسة الأصوات إلى الضبط، والدقة، أكثر من أي محطة مضت في تاريخه، ومنذ الستينيات سجلت الدراسات الصوتية تقدما أكبر في ممارساتها الإجرائية؛ مفيدة من الأجهزة المتطورة، وكذا التحليل الفيزيائي الدقيق للأصوات اللغوية؛ من حيث قياس الحركات العضوية، وتشريح عمليات النطق، والسمع، وغير ذلك من مجالات البحث المتخصصة.

الكلمات المفتاحية: التعليمية ; الأصوات ; اللسانيات ;البنيوية

لقد فرض هذا التطور تصنيفا آخر على مستوى الدراسة الصوتية؛ فتفرّعت إلى عدة اختصاصات؛ منها علم الأصوات الوظيفي، أو ما يسمى بـ "الفونولوجيا"؛ الذي نشأ في أوروبا منذ (1880م)، على يد عدد من العلماء، ثم تطور، وازدهر في الفترة ما بين (1926 – 1938م) على يد علماء آخرين؛ أمثال "تروبتسكوي"، وتم تفعيل مبادئ هذا العلم؛ لتصبح مرتكزا أساسيا من مرتكزات اللسانيات البنيوية، بما يحمله في ذاته من طاقات في فهم النشاط الصوتي للغة، وتفسير التغيرات الصوتية الطارئة عليه عبر تاريخه الطويل، غير أننا نجد لهذا العلم في كثير من مباحثه الإجرائية المتنوعة؛ أصولا وامتدادات في الجهود الصوتية العربية قديما؛ ومن بين القضايا التي ناقشها التراث العربي في هذا السياق ما تعلق بالصيغ من قلب، وإبدال، وإدغام.

أما عن مجال البحث في هذا العلم؛ فهو يعالج اللغة من مدخل أنها مجموعة من الأصوات ترتبط فيما بينها بعدد من العلاقات المجردة التي تحقق تناسقها، وانسجامها، وتعنى أساسا بالمجاورة، والتحقق المقطعي، والتداخل التركيبي، ونسبة الحضور في الاستعمال، الأمر الذي يتطلب إعمالا للعقل في مناقشة هذه المسائل.

كما يعمد علم وظائف الأصوات بالدرس والتحليل إلى معالجة الأصوات المركبة؛ مركزا على بعدها الوظيفي في سياق لغة بعينها، محددا مسائل التناسب بين الأصوات في بناء الكلمة، وكذا خصوصية الموقع التي تأخذه على مستوى

هذا البناء، مفسرا طبيعة العلاقات، والعوامل، والقوانين، والنتائج في سياق النبر، والتنغيم، وما اتصل بهما من قضايا لغوية صوتية.

في ضوء هذا المدخل المعرفي، وما عرضه من أفكار تتصل بنشأة هذا العلم، ومجال اختصاصه في البحث الصوتي، نطرح التساؤل: ما الخصوصية العلمية التي يستحوذ عليها علم الأصوات الوظيفي في سياق الفروع العلمية للدراسات الصوتية من حيث المبادئ، والإجراءات؟، وما الذي قدّمه من إنجازات في التحليل الصوتي؟.

الكلمات المفتاحية: علم الأصوات، الصوت اللغوي، التحليل العلمي للكلام، الممارسة التواصلية، عمليات النطق، التحليل اللغوي، علم الأصوات الوظيفي، الفونولوجيا، اللسانيات البنيوية، النشاط الصوتي للغة، التغيرات الصوتية، الأصوات المركبة.

إن تطور العلوم التربوية واللغوية في النصف الثاني من القرن العشرين ساهم في بلورة مفهوم التعليمية في إفادتها من علمي النفس، والاجتماع، وكذلك اللسانيات، وتأكد في اعتقاد أهل الاختصاص الاتصال العضوي، والعلائق التفاعلية بين عمليتي التعليم، والتعلم، وإذا كانت التعليمية حوصلة من الجهود، والنشاطات الخاصة لبرامج نظامية هادفة لمساعدة المتعلم؛ بوصفه طرفا في العملية التعليمية على استثمار طاقاته، وقدراته في اكتساب المعارف، وتوظيفها فإن تعليمية اللغة العربية، وما تشتمل عليه من محمولات دالة في التبليغ، والتداول، تسير في ركاب هذا الطرح، لكن في نحو خاص؛ خصوصية هذه اللغة.

ونراعي في رصد استراتيجيات هذه العملية، أركانها الأساسية؛ متمثلة في متعلم هذه اللغة، ومعلمها، والمادة (اللغة العربية)، والوضعية التعليمية، وفي سياق هذه الأخيرة نعالج الإجراءات، والبرامج، والطرق الممكنة لإنجاح هذه العملية، وتعتبر المراهنة على الوضعية التعليمية في تعليمية اللغة العربية من التحديات الكبرى؛ كونها تخضع لعدة عوامل؛ منها خصوصية المادة، والفوارق بين المتعلمين من حيث طاقات الإدراك، والاستعدادات هذا من جهة، وطبيعة الأهداف، والكفاءات المسطرة، ليكون السؤال الجوهري متعلقا بالأسلوب، والطريقة، والمنهج المتبع أكثر من أي أولوية أخرى.

ولحوسبة اللغة العربية أهمية كبيرة في العملية التعليمية التواصلية؛ ذلك أن استثمار التقنية من شأنه فتح آفاق واسعة في فهم مدارج الكلام، وإدراك إنتاجيته، وترسيخ فاعليته في محاورة الحاسوب، طلبا للمعلومات، والخدمات؛ الأمر الذي يفرض معرفة متخصصة بالمعالجة الآلية للغة.

وتندرج تجربة اللغة الرقمية في ركاب هذه المعالجة، في إفادتها من برمجيات الحاسوب، إفادة أصبحنا نملك في سياقها نتاجا رقميا ضخما، وآلاف العناوين، وقد رفعت هذه التجربة الحداثية من معدلات المقروئية في الوطن العربي، في مقابل مقروئية النتاج الورقي.

كما أن إدخال البرمجيات الحديثة إلى فضاء تعليمية اللغة العربية جعلها في الواجهة، وفي مواكبة الحراك التكنولوجي، وقد امتد ذلك إلى الإحاطة بأشكال التعبير الأيقوني الممكنة، انطلاقا من فضاء الكتابة، ووصولا إلى عالم الحاسوب، والوقوف على تحولاته ضمن حضارة التقنية التي فرضت أنماطا جديدة في الحوار التعليمي، وجعلت هذه التجربة المادة اللغوية في متناول القراء، ودفعتهم إلى الاشتراك بقوة في عملية التواصل الثقافي العالمي؛ التي تعمل على

تحقيق التقارب بين الشعوب، واختصار المسافات، وسدّ الفجوات، فتصبح لغة أمة ما في متناول المتلقين في مناطق مختلفة من العالم.

أما عن التقنيات المعتمدة في المعالجة الرقمية للغة؛ فنذكر النسخ الآلي للنصوص، وإدراجها ضمن مواقع متميزة، وابتكار أنظمة خاصة بالعرض التقني للمادة اللغوية، بالإضافة إلى التحميل، والترجمة، مع المراهنة في ذلك كله على الدقة، والسهولة، ومحاولة التوفيق بين الخصوصية الفنية للغة العربية، والمعالجة التقنية لها، مع الإفادة قدر المستطاع من مستجدات البرمجيات الحديثة.

ومن الأهداف التي نرمي إليها في هذه الورقة البحثية؛ مكاشفة الاستراتيجيات، والأساليب الممكنة في تعليمية اللغة العربية، وتحليل العملية التعليمية؛ من حيث طبيعة المادة المعرفية المدرّسة، وحاجات المتعلم التعليمية، وتحديد النظرة اللسانية التي يمكن اعتمادها في تعليمية اللغة العربية، وفاعلية ذلك كله في تعليمية قضايا اللغة، وكيفية التوظيف التواصلي لهذه الأخيرة، ومعالجة الأسئلة الجوهرية في الفعل التعليمي من مدخل مسائلات بهذا الحجم: ماذا نعلم (المادة/ اللغة العربية)؟، ومن نعلم (المتعلم)؟، ولماذا نعلم (الأهداف)؟، وكيف نعلم (الطرائق)؟، وبماذا نعلم (الوسائل)؟.

في ضوء هذا الطرح المعرفي سنكاشف تجربة المعالجة الآلية للغة العربية، ودورها الفاعل في عملية التواصل التعليمي، مرورا بجملة من القضايا مثيرة للمساءلة، فما المقصود بالتواصل اللغوي من المنظورين التراثي، والحداثي؟، وكيف نقرأ واقع تعليمية اللغة العربية في ضوء اللسانيات التداولية، والبرمجيات الحديثة؟، وكيف تتم المعالجة الآلية للغة العربية في انتقالها إلى الفضاء الرقمي؟، وهل استطاعت في شكلها التقني فرض حضورها كاستراتيجية للتواصل؟، وكيف أفادت التجربة اللغوية من أنظمة الحوسبة في توسيع آفاق هذا التواصل؟.

يستحوذ البعد التداولي على أهمية كبرى في التفكرين اللغوي، والأدبي، والتأصيل المعرفي لهما؛ ذلك أن التواصل يحدد القيمة الوظيفية لأي ممارسة لغوية، ونظرا لضرورة وجود منظومة قاعدية محددة الآليات، والإجراءات في منهجية العملية التعليمية؛ فما مدى فاعليتها في بعدها الاتصالي من الناحيتين التنظيرية، والإجرائية؟.

يجمع علماء الاجتماع اللغوي على أنّ اللغة؛ «إرث اجتماعيّ ينهض كل جيل من أجيال الأمّة المتكلمة، أو الكاتبة بها إلى استكماله، بما يتفق مع متطلبات العصر»[1]، والإدراك اللغوي حجة التواصل الاجتماعي، وجوهره المقصود، فإذا أدرك الإنسان لغة بعينها، فهم محتواها ومخزونها الفكري، والثقافي، وكان على بيّنة من قاموسها الفني الخاص، فيسهل عليه الاتّصال بها، والتعايش وإياها.

فالعلائق بين اللغة والمجتمع، أو الأمة على درجة كبيرة من التلاحم، والتفاعل، فـ«مَثَل اللغة مع حال الأمّة كالمثاقيل التي توضع في مقابل الموزون؛ فبحساب ما ينقص من اللغة، ينزل ما يقابلها من حال الأمّة إلى درك الشّقاء»[2].

إن اللغة قناة للتّواصل، ومصدر أول للتفكير الاجتماعي، فهي تتأثّر بحركة المجتمع، ذلك أنّ «اللغة في جوهرها مرآة صقيلة، ينعكس على أديمها عادات الإنسان، وقيمه، وتقاليده، وتتبلور فيها أنظمة المجتمعات، ومُثلها، فكلّ شخص تنكّر للغته، فقد شذّ عن مجتمعه، وفقد عضويّته منه، وأضاع شخصيّته عن عمدٍ ... وكل خارج متمرّد على النّظام

اللغويّ يعتبر أيضًا خارجًا، ومتمرّدًا على النّظام الاجتماعيّ، فأيّة لغة كانت في العالم، ما هي سِوى نوع من أنواع السّلوك الاجتماعيّ»[3].

وقد انتقل هذا البعد التواصلي للغة إلى مجال آخر لا يقل أهمية بل يكاد يكون الأهم في دفع المعطى اللغوي باتجاه إنجاح التواصل اللغوي الاجتماعي؛ متمثلا في نقل هذه اللغة عبر أجيال من المتعلمين في إطار ما اصطلح عليه بتعليمية اللغة.

التعليمية المصطلح والمفهوم:

كلمة تعليمية في اللغة مصدر صناعي لكلمة تعليم، المشتقة من علم، أو علامة، أو سمة من السمات الدالة على الشيء بالنيابة عنه، والاستغناء عن التكلف في إحضاره إلى مرآة العين، فيكون بذلك أسهل، وأخف، وأقرب[4]، وهو من علمته الشيء فتعلمه، وعلمته، أعلمه، علما، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)﴾[5]، أجراه على الذكر وسيّره عليه، وعلّمه البيان، خصّه وميّزه به، على سائر الخلق.

والتعلم الإتقان، والإحكام، والتفقه، وعلّم الأمر، وتعلمه؛ أتقنه[6]، و«تعلم الأمر؛ أتقنه، وعرفه، والمعلم من يتخذ مهنة التعليم، ومن له الحق في ممارسة إحدى المهن استقلالا، وكان هذا اللقب أرفع الدرجات في نظام الصنّاع؛ كالنجارين، والحدادين، والمعلّم الملهم الصواب، والخير»[7].

أما اصطلاحا فمن التعليم؛ حيث كان علم التربية شديد الاهتمام بمتعلقاته؛ فاقترح طرائق، وأساليب، وتقنيات ساهمت في تطوير هذا الفعل، لكن المزلق الحقيقي الذي وقعت فيه الدراسات التي تمت في هذا الصدد؛ عدم مراعاتها لخصوصية الطرح العلمي المقدم، في حين ركزت أكثر على توجيه العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم، الأمر الذي طرح ضرورة البحث في علم متخصص يعالج المادة التعليمية مع مراعاة خصائصها؛ فظهر مصطلح (Didactique)؛ «وقد استعمل الغربيون هذا المصطلح؛ للدلالة على التخصص الذي ينظر إلى تعليم أي مادة نظرة علمية، ويميز بين تعليم مختلف المواد، وموازاة مع محاولة علماء التربية الاستقرار على مفهوم محدد للتعليمية، كان اللسانيون في الخمسينيات يحاولون توظيف نتائجهم في ميدان تعليم اللغات الأجنبية، فأطلقوا على هذا التوظيف عدة مصطلحات من قبيل: اللسانيات التطبيقية، وتعليمية اللغات، والدراسة العلمية لتعليم اللغة الأجنبية ...، غير أن مصطلحا واحدا حاز على الاستقرار، والشيوع هو تعليمية اللغات (Didactique Des langues)»[8].

والتعليمية ترجمة لكلمة (Didactique) من الأصل الإغريقي (Didaktikus) فلنتعلم، وكان يطلق على نوع من الشعر؛ يُعنى بعرض المعارف، والعلوم[9]، وتُعنى هذه العملية بدراسة الظروف المحيطة بالمتعلم التي من شأنها التوجيه التعليمي و«هو بالضبط دراسة الظروف المحيطة بمواقف التعلم، ومختلف الشروط التي توضع أمام التلميذ لتسهل ظهور التمثلات لديه، وتوظيفها، أو إبعادها، أو وضعها موضع تغيير، ومراجعة؛ لخلق تصورات، وتمثلات جديدة»[10].

ويحدد "أحمد حساني" قصدية هذه الممارسة بكونها «تهدف إلى إكساب المتعلم مهارة التعبير الشفوي؛ لأنه هو الطاغي على ما سواه في الممارسة الفعلية للحدث اللغوي»[11]؛ فالتعليمية علم تطبيقي يختص بدراسة علمية لطرائق التدريس، وتقنياته، ومواقف التعليم والتعلم؛ هادفة إلى صوغ نماذج تطبيقية؛ قصد متابعة «تغيير دائم في سلوك الإنسان،

واكتساب مستمر لخبرات، ومهارات جديدة تؤدي بالضرورة إلى إدراك جديد، ومعرفة عميقة للمحيط الطبيعي، والاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان؛ من حيث هو كائن حي مكلف، يحمل رسالة مقدسة في هذا الكون»[12].

ولتحقيق هذه المساعي لا ضرر من الاستعانة بالعلوم الأخرى؛ كعلوم التربية، والنفس، والاجتماع والبيداغوجيا، وغيرها... من أجل الإعداد الصحيح لتوجيه حركية التفاعل بين المعلم والمتعلم، وما له من تأثير في الفعل التعلمي.

ومن هنا يتحدد موضوع التعليمية؛ فهي تهتم بما هو تعليمي تعلّمي؛ أي الطريقة المعتمدة من طرف المعلم في تلقين المتعلم، وهي كمجال عمل تشتغل في ثلاث مسارات كبرى: معلم، ومتعلم، ومادة تعليمية في سياق علاقات تفاعلية؛ وفق مجموعة من الإجراءات المدركة، ويمكن أن نمثّل لذلك بهذا المثلث التعليمي[13]:

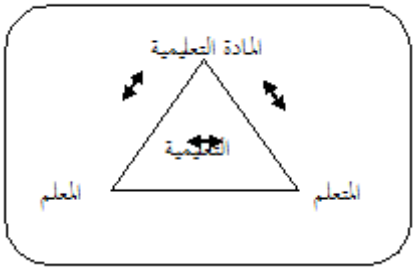

يظهر من خلال هذا المخطط قيام العملية التعليمة على أطرافها الرئيسية الثلاث؛ متمثلة في المعلم، والمتعلم، والمادة التعليمية، وأنّ الفعل التعليمي يعدّ مركزا، ومحورا تدور حوله العلائق الممكنة بين هذه الأطراف؛ كونه يتدخل في توجيهها، وتوثيقها.

تعليمية اللغة العربية:

تعتبر العربية واحدة من اللغات الحية، القارة في التداول والتواصل، قوامها الاشتقاق؛ قال "ابن جني": «إني تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، فوجدت فيها من الحكمة، والدقة، والإرهاف، والرقة ما يملك على جانب التفكير»[14]، فضلا عن كون العربية «تذهب إلى الغرض المقصود مباشرة، بينما اللغات الأوروبية لا تصل إلى ذلك إلا تدريجيا، وإنها تبرز المعنى المراد في أقل ما يمكن من الألفاظ، وتعجز اللغات الأخرى على أن تجاريها»[15].

ويصعب تحديد مفهوم جامع لعملية التعلم بسبب اختلاف الباحثين في علم النفس، واللسانيات؛ «ويرجع السبب في ذلك إلى عدم إمكانية ملاحظة هذه العملية على نحو مباشر، فهي ليست شيئا ماديا يمكن ملاحظته، وقياسه مباشرة، وإنما هو عملية افتراضية، يستدل عليها من خلال السلوك، أو الأداء الخارجي»[16].

وعملية التعلم قوامها «مجموعة الأفعال التواصلية، والقرارات التي تم اللجوء إليها بشكل قصدي، ومنظم؛ أي يتم استغلاله من طرف الشخص (أو مجموعة من الأشخاص) الذي يتدخل كوسيط في إطار موقف تربوي – تعليمي»[17]؛ فالتعلم اكتساب اللغة، وتحصيلها، بالتركيز الواعي، واعتماد أنظمة الاختزان، والتنظيم المعرفي.

فعل التواصل:

يعتبر التواصل اللغوي في التجربة الإنسانية الفعل الأكثر تعقيدا، وانفعالا، وإبداعا مقارنة بأشكال التواصل الأخرى؛ كونه يخرج لأداء عدة وظائف نفسية، واجتماعية في الآن ذاته، والتواصل لغة من الاتصال، والوصل؛ أي الصلة،

وبلوغ المقصد، والغاية، والاتصال «ضد الانفصال، ويطلق على أمرين أحدهما اتحاد النهايات، وثانيهما كون الشيء يتحرك بحركة شيء آخر»[18].

والتواصل (Communication) في الاصطلاح مأخوذ من اللفظ اللاتيني (Communis)؛ بمعنى المشاركة[19]، وهو عملية تبادل للمعارف؛ قوامها التفاعل بين المراسلين، والمستقبلين في سياقات اجتماعية بعينها[20]، كما أن التوصل فعل كلامي متبادل بين المتكلم والمخاطب، تبعا لنموذج محدد[21]، والتواصل اللغوي قناة لنقل الأفكار، والمعارف بين أطراف الجماعة اللغوية على سبيل التأثير، وتبادل الخبرات.

التواصل اللغوي في العملية التعليمية:

تخطت اللسانيات التداولية الأطر المفاهيمية التقليدية التي قامت عليها الدراسات السابقة للغة؛ بوصفها نظاما لسانيا يُدرس انطلاقا من ذاته، وسعيا إليها، وقد تجاوزت هذا الطرح باتجاه دراسة هذه اللغة؛ بوصفها نظاما تواصليا تداوليا؛ حيث توجهت الاهتمامات البحثية إلى مقاربة «الكيفية التي تستعمل بها اللغة، بالكيفية التي تتحقق بها اللغة بالفعل عند الاستعمال عند التخاطب، وتندرج هذه القضايا كلها في إطار تيار من الدراسات، والنظريات تسمى عند أهل الاختصاص بالتداولية؛ والتي تُعنى بصفة خاصة بالكيفية التي تستعمل اللغة عند الحديث، أو في الحديث»[22].

وقد ركزت اللسانيات التداولية في سياق الطرح التعليمي على تفعيل القدرات التواصلية لدى المتعلم، وتكييف طاقاته اللغوية، والاستعمالات الوظيفية للغة في المواقف التواصلية المختلفة، مع مراعاة السياقات، والمقامات في إطار الممارسة.

وينطلق تعليم اللغة من المرجع الثقافي للحالة الاجتماعية الخاصة بالمتعلم؛ حيث «يتم تنمية الملكات التبليغية التواصلية لدى متعلمي اللغة، وذلك بالتركيز على خصوصياتهم، مع مراعاة ما هم في حاجة إلى تعلّمه؛ تبعا لتلازم قدرات ثلاث: قدرة نحوية، وهي تضم مستويات صوتية، وصرفية، ومعجمية، ودلالية، وتركيبية للغة، وقدرة سوسيو لسانية، وهي معرفة العلاقات بين اللغة، وسياقها غير اللساني، وقدرة استراتيجة؛ وهي معرفة استراتيجيات التواصل اللغوي، وغير اللغوي»[23].

الأمر الذي يمكّن متعلم اللغة من التحكم في نظامها، والأنساق الاجتماعية والثقافية، المتدخلة في تشكيلها، وتوظيفها في إطار العملية التواصلية، وأفراد الجماعة اللغوية الواحدة، وامتلاك القدرة على تلقي، واستقبال الرسالة اللغوية.

عناصر التواصل في العملية التعليمية:

المرسل (المعلم): يقوم بإرسال الخطاب اللغوي، وإخراجه في قالب قوامه الفهم، والشرح، والتحليل، والتركيب، وهو يتحرى من خلاله التيسير، والتبسيط، ولابد من توفر جملة من الشروط في هذا الخطاب؛ لكي يكون عاملا فاعلا في إنجاح تعليمية اللغة، ومن بين هذه الشروط نذكر:

الكفاية التواصلية، والمقصود بها «قدرة المتكلم على معرفة كيف يستعمل اللغة، ومعرفة ما يجب قوله في ظروف معينة، ومتى يجب عليه السكوت، ومتى يجب عليه الكلام، إنها المعارف التي تزداد على الكفاية اللغوية الصرفة؛ المتمثلة في ثراء الرصيد المعجمي عند مستعمل اللغة، وتمكنه من قواعد مسيطرة على المعاني، ووضوح خطابه»[24]، ويتم امتلاك هذه

الكفاية عن طريق الاستحضار، والتمثل الواعي للألفاظ بمدلولاتها في الذهن، كلما استدعت المواقف التواصلية اللغوية ذلك، وحسن انتقاء الألفاظ الدالة على المعاني المراد تبليغها، مع مراعاة مقام الأداء؛ بأن يتمهل المرسل في كلامه؛ ليكون أكثر تحكما، وإقناعا فيما يقول.

إضافة إلى الكفاية العلمية، بأن يكون المعلم متحكما في موضوعه؛ كون الإفادة مرهونة بذلك، فضلا عن كون هذه الكفاية تجعله يتحكم في توجيه العملية التواصلية، وكذلك الكفاية اللغوية بحيث يمتلك المعلم مهارات اللغة العربية في النحو، والصرف، والصوت، والدلالة، والمعجم، فلا يكون «المحاور ناطقا حقيقيا إلا إذا تكلم لسانا طبيعيا، وحصّل تحصيلا كافيا صيغه الصرفية، وقواعده النحوية، وأوجه دلالات ألفاظه، وأساليبه في التعبير، والتبليغ»[25]، وتسير في ركاب هذه الكفاية كفاية من نوع آخر؛ تُعنى بتجديد المعارف اللغوية، ومتابعة مستجدات الدرس اللغوي الحديث، وتفعيلها في الأداء، والممارسة.

وحتى الكفاية الأخلاقية تلعب دورا رئيسيا في تعليمية اللغة من صبر، وتواضع، وتعفف، وتلطف في محاورة المتعلم؛ الذي يذهب إلى تفسير المعاملة على أنها انطباع تجاه موقفه التعليمي، وسلوكه بوصفه متلقيا محوريا في العملية التعليمية.

المستقبل (المتعلم): يتلقى الرسالة اللغوية، ويعيد تفكيكها، وتمثلها ذهنيا، والوقوف على مقاصدها، فيتفاعل وإياها، ويعيد تركيبها؛ مانحا إياها مقاربة جديدة، وفهما آخر يحمل بصمته الخاصة، وبذلك يشارك في إنتاج الرسالة؛ مشاركة فاعلة، تحقق البعدين الوظيفي، والتداولي للفعل التعليمي.

ومن الكفايات التي لابد من توفرها في المتعلم حتى يكون في مستوى العملية التعليمية الكفاية اللغوية، والحوار المباشر، والتركيز في التلقي، والرغبة في تحصيل المعارف، وتطوير الكفاءة، ومجاراة المعلم في خطابه بالتساؤل، والاستفسار، والإضافة.

الرسالة (المادة التعليمية): هي حلقة التواصل بين المرسل والمستقبل؛ ذات أبعاد فكرية وجمالية، وتأخذ عدة صيغ في العرض والتقديم، ولابد من وجود نوع من التوافق بينها، وبين حال المتعلم، ومستواه، إضافة إلى الدقة، وإحكام البناء، والتركيب، والإقناع، والسلامة اللغوية دون الاسترسال الممل، أو الاقتصاد المخل في الصياغة.

ومن استراتيجيات البعد التواصلي في تعليمية اللغة العربية المشاركة في بناء علاقة مؤسسة بين المعلم والمتعلم، مبنية على الاحترام، والتقدير، وحب العلم، والمعرفة، وكذلك التوجيه الذي يتمظهر خلال توجيهات المعلم لطلابه؛ طلبا للتحصيل، والاكتساب، ودفعا للخطأ في استيعاب الخطاب اللغوي الإرشادي، إضافة إلى التلميح بالرمز، والإشارة، بتوظيف مختلف أشكال التصوير الفني والبلاغي، وكذلك الحجاج، والبرهنة، والتعليل في الخطاب بهدف الإقناع.

تقوم تعليمية اللغة على مناهج بعينها؛ ذات أهداف، ووسائل، وطرائق غير أن أهم إشكال واجهته تعليمية اللغة العربية عدم إفادتها من تعليمية اللغات؛ بوصفها علما متخصصا، ولم تستثمر الدرس اللساني بشكل جيد في حل المشاكل اللغوية التي تعترض المسار التعليمي، ولا أدل على ذلك من تراجع مستوى تعليمية اللغة العربية لدى المتعلمين في الوطن العربي؛ لافتقارها المرتكز العلمي المؤسس في توجيه هذا المسار توجيها صحيحا، وهذا ما استوقف بعض الدارسين،

وهم بصدد تقييم تعليمية اللغة العربية في الأداء والممارسة؛ حيث أكد "الراجحي" فقال: «إن حال تعليم العربية عندنا يرجع في أساسه إلى سبب جوهري لا تنفع معه معالجة الأسباب الفرعية، ألا أنه غياب المنهج العلمي»[26].

ومن قنوات التواصل التي تنتقل عبرها المعاني؛ الرموز، والإشارات اللغوية أثناء الفعل التواصلي، وانطلاقا من هذه القنوات تتحدد طبيعة الرسالة[27]، ومن الشروط الواجب توفرها في قنوات الاتصال خاصة المادية منها أن تساعد على الفهم، والإدراك، وأن توافق المستوى العقلي للمستقبلين، فضلا عن الشروط الواجب توفرها في الخطاب اللغوي؛ بوصفه أهم قنوات الاتصال بين المعلم والمتعلم.

ومن القنوات أيضا؛ «الوسائل المكتوبة (الكتب)، والوسائل الشفوية المباشرة، الوسائل السمعية (أشرطة التسجيل)، الوسائل السمعية البصرية (أشرطة الفيديو)، الوسائل الإلكترونية الحديثة (أجهزة الحاسوب، شبكة الانترنيت)»[28].

المعالجة التقنية في تعليمية اللغة العربية:

أصبح توظيف المعالجة التقنية في تلقين العربية، وتحصيلها مطلبا ضروريا لابد منه؛ لدفع الحراك المعرفي، لذا تم استثمار وسائل الإعلام المختلفة في تعليمية اللغة العربية، وكانت المراهنة على ذلك بـ: «استخدام مظاهر التقنية المختلفة – في بُعديها المادي، والفكري في تدريس اللغة؛ لتنمية مهاراتها سواء كانت هذه التقنية في شكلها البسيط؛ كالصور، والرسوم، أو المتطور؛ كالأجهزة التعليمية؛ مثل التّلفزيون التّعليمي، والحاسوب الآلي، والانترنيت، أو استخدام استراتيجيات تدريسية حديثة؛ مثل الحقائب التعليمية، والمنظمات المتقدمة، والتعليم التعاوني، والتعلّم حتى التمكّن»[29].

وكل هذه التقنيات إذا ما وجهت لخدمة تعليمية اللغة توجيها مؤسسا، لا شك في كونها سترفع من مستويات الأداء التعليمي، وتفعيل المهارات، وتشكيل الخبرات المتعلقة به، وكذا تجاوز العقبات، والمشاكل التي تعترض سبيله، فقد أثبتت التجارب التربوية «أن التقنية تكاد تكون ضرورية في تدريس اللغة للمتعلمين، وأنه لو أحسن المربّون استخدامها، وربطها بالمنهج، فستوفر الفرصة اللازمة للمتعلمين؛ لكي يتعلموا داخل حجرة الدراسة، وخارجها»[30].

فالتقنية تساعد على تطوير ملكات الإدراك الحسيّ، وتقويتها لدى المتعلم، كما تعمل على تنميّة طاقاته الفكرية، وتعزيز تحصيله اللغوي، وبذلك يكون من حيث التلقي والاستجابة، أكثر فاعلية ونشاطا، فضلا عن امتلاك المهارات المختلفة؛ كالفهم، والاستيعاب، والاستحضار متى استدعت المواقف اللغوية ذلك.

إنّ لحوسبة اللغة أهمية كبيرة في العملية التعليمية؛ ذلك أن الحاسوب اللغوي هو الأكثر قدرة على استيعاب المسافات الممكنة بين اللغة ومتعلّمها، أما عملية التواصل الحاسوبي فلها دور فاعل في خلق قنوات الاتصال بين معلم اللغة ومتعلمها، ولتيسير هذا العملية، وتفعيلها أكثر في سياق ما يسمى بالتعليم الإلكتروني، والتعليم عن بعد؛ «لابد من تكاتف جهود علماء اللغة، وعلم النفس، والهندسة، والحاسوب؛ فاختراع آلات قادرة على التجاوب مع الناس بصورة طبيعية، أو الحديث إليهم بصورة تلقائية، أمر يتطلب فهما عميقا لبنية اللغة، ورموزها، كما يفترض معرفة متخصصة بالآليات التي يتبعها الناس؛ لأغراض التّواصل بينهم، (وهذا مجال علم النّفس)، وأيضا معرفة في مجال علم الإشارة، (وهذا مجال اختصاص الهندسة الكهربائية)، أيضا إلى معرفة جهود علماء الحاسوب؛ ... لإنتاج الكلام الطّبيعيّ»[31].

هكذا كانت اللغة العربية على لقاء مميز مع الحاسوب؛ باعتباره نمطا مستحدثا للمعالجة اللغوية للمعارف، وخدمة لذلك؛ عمل أهل الاختصاص على تطوير البرمجيات الحاسوبية من هذا المدخل، وعملوا على استثمار نظم المعلوماتية بالجامعات، والمعاهد، والمجامع اللغوية في ضوء لسانيات عربية حاسوبية.

ولعل من أكبر التحديات التي تواجهها تعليمية العربية ضرورة مواكبة المستجدات الحاصلة على مستوى الواقعين اللغوي والثقافي، وما يفرضانه من حاجات، والتزامات، ومتطلبات مما يستدعي حلولا عملية، وعلمية تفيد من الوسائل التقنية في التكنولوجيات الحديثة.

ومن مقترحات الوعي بأهمية التواصل التعليمي؛ الإفادة من خطط، وبرامج تعليمية اللغات في تعليم اللغة العربية؛ كونها تمثل مرجعا نموذجيا لتوفير قاعدة علمية، ومعلوماتية لا بد منها في إعداد البحوث العلمية المتعلقة بهذا المشروع المتخصص، الذي يحتاج إلى الإطلاع على الخبرات المتراكمة في هذا المجال، وكذا توجيه البحوث، والدراسات الجامعية في ضوء ذلك، ونحو تطبيق معايير الكفاءة في مختلف المؤسسات التعليمية، انطلاقا من مراجعة المناهج، والبرامج، وتحسينها.

خلاصة:

تتطلع التعليمية إلى دراسة علمية منظمة تُعنى بتنظيم الوضعيات، والمواقف التعليمية التي يلعب فيها المعلم والمتعلم دورا أساسيا في تسهيل عمليتي التعليم والتعلّم بطرح جيد، وتصنيف مضبوط للمادة التعليمية بما يناسب حاجات، ومتطلبات المتعلم؛ لتحقيق المساعي المعرفية المرجوة.

يعتبر التواصل بعدا استراتيجيا في تعليمية اللغة العربية، ونقطة اللقاء التي التفت حولها الدراسات اللسانية في اهتماماتها بالتداولية؛ التي تعنى بالموقف الوظيفي في الممارسة اللغوية بين أطراف العملية التعليمية، فلم تبق هذه الأخيرة حبيسة التلقين التقليدي الذي يتخذ من حفظ المبادئ، والقواعد بأساليب محدودة أهم هدف في مسعاه.

والتداولية في تعليمية اللغة العربية تُعنى بآليات عرض الخطاب اللغوي من مدخل التواصل الفاعل، القائم على إنتاج الملفوظات الدالة على قصدية المرسل؛ بغية التأثير في المستقبل، مع احترام مختلف المرجعات المؤسسة للنظام اللغوي.

يقتضي التواصل اللغوي الناجح امتلاك الكفاءات، والاستراتيجيات المختلفة لدى معلم اللغة العربية ومتعلمها على حد سواء؛ كونها تعمل على اكتساب المهارات اللغوية، وتحصيلها؛ لأنها الهدف الرئيسي المسطر للفعل التعليمي في تعليمية اللغات عامة، وتعليمية اللغة العربية خاصة، وبالرغم من المتاح من إمكانيات علمية على الصعيدين النظري والعملي، إلا أن تعليمية اللغة العربية تواجه تحديات خطيرة في استيعاب الراهن، والإجابة عن التساؤلات التي يثيرها خطاب المستقبل.

الهوامش:

[1]- رشدي أحمد طعيمة، محمود كامل النّاقة، اللغة العربيّة والتفاهم العالمي، دار المسيرة، 2009، ص 5.

[2]- محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط2، 1960، ص 119.

[3]- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمّة روح ثقافتنا، دار الشهاب، الجزائر، 1989، ص 08.

[4]- ينظر: ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ط 2، (د.ت.ط)، ص 44.

[5]- سورة الرحمن، الآية: 01 - 04.

[6]- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، مصر، مج 4، ج 34، ص 3083.

[7]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص 624.

[8]- لطيفة هباشي، تعليمية اللغات واللغة العربية إشكاليات وتحديات، التواصل في اللغات والآداب، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، ع 37، مارس 2014، ص 170.

[9]- ينظر: رضا جوامع، استثمارات تعليمية اللغات في تدريس البلاغة العربية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة باتنة، ع 14، جوان 2006، ص 41.

[10]- محمد الدريج، مدخل إلى علم التدريس، قصر الكتاب، كلية علوم التربية، الرباط، المغرب، 2000، ط2، ص 13.

[11]- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص 132.

[12]- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، حقل تعليمية اللغات، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 2009، ص 45 – 46.

[13]- بن جامعة الطيب، تعليمية الصوت اللغوي في المستويات الدنيا، دراسة ميدانية العلوم في اللغة والأدب العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، 2007-2008م، ص 06.

[14]- محسن عطية، تدريس اللغة العربية في ضوء الكفايات الأدائية، دار المناهج، عمان، الأردن، 2006، ص 37.

[15]- المرجع نفسه، ص 37.

[16]- عماد الزغلول، نظريات التعلم، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص 30.

[17]- محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، 2000، ص 13.

[18]- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص 973.

[19]- علي سامي الحلاق، المرجع في تدريس مهارات اللغة العربية وعلومها، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2010، ص 64.

[20]- ينظر: طلعت منصور، سيكولوجية الاتصال، عالم الفكر، الكويت، مج 11، 1980، ص 107.

[21]- ينظر: عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 78.

[22]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د.ت.ط)، ص 158.

[23]- شيباني الطيب، إستراتيجية التواصل اللغوي في تعليم وتعلم اللغة العربية دراسة تداولية، إشراف د. لبوخ بوجملين، ماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص تعليمية اللغة العربية وتعلمها، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2009 – 2010، ص 55.

[24]- هادي نهر، الكفايات التواصلية والاتصالية دراسة في اللغة والإعلام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003.

[25]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص 37.

[26]- عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار النهضة العربية، لبنان، ط2، 2004، ص 90.

[27]- ينظر: رايص نور الدين، نظريات التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس، المغرب، ط1، 2007، ص 316.

[28]- شيباني الطيب، إستراتيجية التواصل اللغوي في تعليم وتعلم اللغة العربية دراسة تداولية، مرجع سابق، ص 62.

[29]- سعيد عبد الله، التّكامل بين التقنية واللغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2006، ص 243.

[30]- المرجع نفسه، ص 245.

[31]- وليد إبراهيم الحاج، اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، دار البداية، الأردن، 2006، ص 32.